مصارع الخلفاء

مشاهد رائعة نقلها عن التاريخ

ك . ك

وياً دهر لحاك الله ما
هنأت فرحانك
« أبو العلاء »

مصرع الامين

« ١ »

تمهيد

ليس أروح للنفس من تمثل مصارع الناس ، والاستماع اليهم في ساعتهم الاخيرة ، ومعرفة ما قالوه وقت حلول الاجل ، وآخر ما تفوهوا به من الكلم قبل أن يفارقوا هذا العالم ـ خيره وشره ـ فراقاً أبدياً لا عودة لهم بعده .

واذا كان ذلك هو شعورنا نحو الموت فلاجرم انه يزداد ويتعاظم الى أقصى حد ، حين يقترن بعظمة الملك وأبهة السيطرة ، فليس أشجى للنفس من تمثل مصرع خليفة أو قائد كبير أو شاعر عظيم ، أو أي واحد من أساطين هذا العالم الذين نقشوا في تاريخ الانسانية صفحات لا يمحوها الزمن

ولعل خير ساعة يستعرض فيها المتأمل تاريخ حياة انسان هي ساعة احتضاره ، فانه ليرى أمام كل صورة من صور الضعف صورة أخرى من صور القوة ، ويلمح بجانب تلك الصور المشجية الحزينة ، ما يقابلها من الصور الماضية البسامة المشرقة

وما تمثلت الأمين قط ، وهو محاصر مهدوم ، يطلب الخلاص أو الهرب ، فلا يجد اليهما سبيلا ، وقد ضيق عليه طاهر سبل النجاة ، إلا ذكرت صاحبه واستهتاره

من قبل حين جاءه نبأ هزيمة قائده « علي بن عيسى » وقتله وكان في وقته ذلك على الشط ، يصيد السمك ، فقال للذي أخبره :

«ويلك دعني فلن كوثر قد اصطاد سمكتين ، وأنا ما اصطدت شيئا بعد !

وما ذكرت تلك الخاتمة المروعة التي انتهت بها حياة هذا الباطش العزيز ، وهو يستغيث فلا يغاث ، ويطلب النجدة فلا يسمع اليه أحد ، ثم يذبح من قفاه ، فيذكرنا بقول شاعر المعرّة

وما أجلّ عظيم من رجالهم اذا تؤمل الا ماعز ذبحا

الا تمثلته في صوره الاخرى ، باطشا ولاهيا ، ومترنح الاعطاف زهوا ، ومصعّرا خده تيها ، وقابضا على ناصية الخلق متصرفا في أرزاقهم وأعمارهم ، تعنو له الجباه وتنحني أمامه الرؤوس ، وينشده ابو نواس :

قد كنت خفتك ثم أمنني من أن أخافك خوفك الله»

فسبحان المعز المذل .

(٢) حلم الأمين

قال الأمين .

« رأيت في منامي كأني قائم على حائط من آجر شاهق في السماء ، عريض الأساس ، لم أر مثله في الطول والعرض ، وعليّ سوادي ومنطقتي وسيفي

وكان « طاهر » في أصل ذلك الحائط ، فما زال يضربه حتى سقط وسقطت ، وطارت قلنسوتي عن رأسي »

(٣) آخر أيامه

وهكذا امتلأت نفس الامين بالهواجس في يقظته ونومه ، فأصبح لا يقر له قرار ، ولا يهدأ له بال بعد أن حصره طاهر وأخذ عليه الابواب ، ومنع منه ومن أهل المدينة الدقيق والماء وغيرهما ، وليس أصدق في تمثيل ما وصل اليه من الروع والفزع من هذا الحلم . ولقد حاول أن يرفه عن نفسه ، أو يذهل عن حقيقة موقفه ، فلم يفلح وأبى القدر المحتوم إلا أن يتضافر كل شيء على إزعاجه وتكدير صفوه .

قال ابراهيم بن المهدي ـ:

خرج الامين ـ ذات ليلة ـ يريد أن يتفرج من الضيق الذي هو فيه ، فصار الى قصر له بناحية « الخلد » ، ثم أرسل الي فحضرت عنده ، فقال : « ترى طيب هذه الليلة وحسن القمر في السماء ، وضوءه في الماء على شاطيء « دجلة » فهل لك في الشرب ؟ »

فقلت : « شأنك »

فشرب رطلا ، وسقاني آخر ، ثم غنيته ما كنت أعلم انه يحبه ، فقال لي : « ما تقول فيمن يضرب عليك ؟ » فقلت : « ما أحوجني اليه ! »

فدعا بجارية متقدمة عنده اسمها « ضعف »

فتطيرت من اسمها ونحن في ذلك الحال ، فقال لها : « غني » ، فغنت شعر الجعدي :

كليب لعمري ، كان أكثر ناصراً وأيسر جرما منك ، ضرج بالدم

فاشتد ذلك عليه ، وتطير منه ، وقال : « غني لنا غير ذلك » فغنت :

أبكى فراقكم عيني ، فأرّقها إن التفرق للاحباب بكاء

ما زال يعدو عليهم ريب دهرهم حتى تفانوا ، وريب الدهر عداه

فقال لها : « لعنك الله ! أما تعرفين من الغناء غير هذا »

فقالت : « ما تغنيت الا ما ظننت أنك تحبه » ثم غنت آخر :

أما ورب السكون والحرك إن المنايا كثيرة الشرك

ما اختلف الليل والنهار وما دارت نجوم السماء في الفلك

إلا لنقل السلطان عن ملك قد زال سلطانه إلى ملك

وملك ذي العرش دائم أبداً ليس بفان ، ولا يشترك

***

فقال لها : « قومي ، غضب الله عليك ولعنك ! »

وكان له قدح من بلور حسن الصنعة ، وكان موضوعا بين يديه ، فعثرت الجارية به فكسرته ، فقال :

« ويحك يا ابراهيم ! أما ترى ما جاءت هذه الجارية ، ثم ما كان من كسر القدح ؟ والله ما أظن أمري إلا قد قرب ! »

فقلت : « يديم الله ملكك ، ويعز سلطانك ، ويكبت عدوك » فما استتم الكلام ، حتى سمعنا صوتا : « تقضي الامر الذي فيه تستفتيان »

فقال « يا ابراهيم ! أما سمعت ما سمعت ؟ »

قلت : « ما سمعت شيئاً » وكنت قد سمعت

قال : « تسمع حسا » فدنوت من الشط ، فلم أر شيئا ، ثم عاودنا الحديث ، فعاد الصوت بمثله ، فقام من مجلسه معنا الى مجلسه بالمدينة

قال : « فما مضى الا ليلة أو ليلتان حتى قتل ! »

***

(٤) يوم الوداع

قالوا :

ودعا بابنيه ، فضمهما اليه ، وقبلهما وبكى ، وقال : استودعكما الله ـ عز وجل ـ ودمعت عيناه فسح دموعه بكمه

ثم جاء راكبا الى الشط ، فاذا خراقة « هرثمة » فصعد اليها فأحسن هرثمة لقاءه .

وهنا يقتهم أصحاب « طاهر » في الزواريق ، فنقبوا الخراقة فغرقت بهم بعد أن رموهم بالآجر والنشاب ، وسقط « الأمين » الى الماء ، فشق ثيابه ، حتى خرج الى الشط حيث قبض عليه

ـ ذلة العزيز ـ

قال من رآه :

لما ذهب من الليل ساعة ، رأيت الباب قد فتح ، وأدخلوا الامين ـ وهو عريان وعليه سراويل وعمامة وعلى كتفه خرقة خلقة

فتركوه معي ، فاسترجعت وبكيت فيما بيني وبين نفسي فسألني عن اسمي فعرفته

فقال : « ضمني اليك ، فاني لأجد وحشة شديدة »

قال : « فضممته الي ، واذا قلبه يخفق خفقانا شديدا »

فقال : « يا أحمد ! ، ما فعل أخي »

قلت : « هو حي ! »

قال : « قبح الله بريدهم ، كان يقول قد مات ! »

(وكأنما قال ذلك معتذرا من محاربته)

فقلت : « بل قبح الله وزراءك ! »

فقال الامين : « ما تراهم يصنعون بي ، أيقتلونني ، أم يفون لي بأمانهم ؟ »

فقلت : « بل يفون لك »

وجعل يضم الخرقة على كتفه ، فنزعت سبطنة كانت عليّ ، وقلت : « ألق هذه عليك ! »

فقال : « دعني ، فهذا من الله عز وجل ـ في مثل هذا الموضع ـ خير كثير . فبينا نحن كذلك ، اذ دخل علينا رجل ، فنظر في وجوهنا ، فاستثبتها ، فلما عرفته انصرف ، وعلمت أن الامين مقتول .

(٥) الساعة الرهيبة

عند منتصف الليل

قال :

فلما انتصف الليل أوقارب ، فتح الباب ، ودخل الدار قوم من العجم معهم السيوف مسلولة ، فلما رآها قام قائما ، وجعل يقول :

« انا لله ، وانا اليه راجعون !

ذهبت والله نفسي في سبيل الله

أما من حيلة ؟ أما من مغيث ؟ أما من أحد من الابناء ؟

***

وجاءوا حتى وقفوا على باب البيت الذي نحن فيه ، وجعل بعضهم يقول لبعض :

« تقدم » ويدفع بعضهم بعضا (١) وقام الامين ، فأخذ بيده وسادة وجعل يقول :

« ويحكم ، أنا ابن عم رسول الله — صلى الله عليه وسلم —

أنا ابن هرون ، أنا أخو المأمون ، الله الله في دمي .

(٦) دفاع اليائس

فدخل عليه رجل منهم ، فضربه بالسيف ضربة ، وقعت في مقدم رأسه ، وضربه الامين بالوسادة على وجهه ، وأراد أن يأخذ السيف منه .

فصاح . « قتلني ! ، قتلني !

***

(٧) كيف صرع الأمين

وهنا دخل منهم جماعة .

فنخسه واحد منهم بالسيف في خاصرته .

وركبوه ، فذبحوه من قفاه .

وأخذوا رأسه ، ومضوا به الى طاهر ، وتركوا جثته !

فلما كان السحر ، أخذوا جثته فأدرجوها في جل ، وحملوها . فنصب طاهر الرأس على برج ، وخرج أهل بغداد للنظر ؛ وطاهر يقول .

هذا رأس المخلوع محمد (٢)

(٨) مرثية أبي نواس

ولعل أجمل ما قرأناه في رثائه ؛ هو قول أبي نواس

طوى الموت ما بيني و بين محمد ... وليس لما تطوي المنية ناشر

فلا وصل الا عبرة تستديمها ... أحاديث نفسي ، مالها الدهر ذاكر

لئن عمرت دور بمن لا أوده ... لقد عمرت ممن أحب المقابر

وكنت عليه أحذر الموت وحده ... فلم يبق لي شيء عليه أحاذر

---

(١) قال الراوى : فقمت فصرت خلف الحصر المدرجة فى زاوية البيت خيفة القتل (٢) عن الطبرى باختصار